



تداولية عنوان "صبح الأعشى" للقلقشندي

The Pragmatics of the title in "Subh al-Asha"
by Al-Qalqashandi

موسى طهراوي

جامعة آكلي محند أولحاج- البويرة (الجزائر)، m.tehraoui@univ-bouira.dz

ملخص:

إذا كان العنوان هو العتبة الأولى في أي عمل أدبي أو إبداعي أو فني، فإنه حريٌّ بنا أن نحفر في ذاكرة لغتنا من أجل استنطاق عنوان "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" لأبي العباس أحمد القلقشندي، ومقارنته مقارنة تداولية للوقوف على مقدرته في تخيّر ألفاظ عنوان موسوعته، ونلج من خلاله إلى عوالم القلقشندي واستجلاء مقاصده.

كلمات مفتاحية: تداولية، عنوان، صبح الأعشى.

Summary:

If the title is the first threshold in any literary, creative, or artistic work, we need to delve into the memory of our language to articulate the title 'Subh al-A'sha in Writing' by Abu al-Abbas Ahmad al-Qalqashandi. We will approach it from a pragmatic perspective to examine his ability to choose the words of his encyclopedia's title, allowing us to enter the worlds of al-Qalqashandi and uncover his intentions.

Keywords: Pragmatics, Title, Subh al-A'sha

مقدمة :

يجنح الكثير من الدارسين والقراء إلى مطالعة الكتب والروايات والأعمال المسرحية والأدبية والفنية وغيرها، إلا أنهم يواجهون الكثير من العقبات المؤدية إلى فهم تلك النصوص والخطابات، وأول هذه العقبات العنوان؛ الذي يعد أحد أهم مداخلها وأبرز بوابة فيها.

المؤلف المرسل: موسى طهراوي، الإيميل: m.tehraoui@univ-bouira.dz

لم يكن يُلقى للعنوان بالا من طرف النقاد والدارسين إلا بمجيء الدراسات السيميائية التي اهتمت بكل «ما يحيط بالنص من عناوين ومقدمات وهوامش وتنبيهات...، وذلك بعدما تبين أنها من المفاتيح الهامة في اقتحام أغوار النص...، وبخاصة العنوان»¹، الذي يراه العالم الفرنسي جيرار جينيت أنه العتبة الأولى² التي يواجهها القارئ والتي تفرض عليه أن يستنطقها قبل سبر أغوار النص والوصول إلى عوالمه الممكنة. وذلك بالبحث والتحليل في مكونات العنوان من ناحية البنية والتركيب والدلالة والمقصد. وهو ما نصبو إليه من خلال محاولتنا التنقيب عن الأطر والأبعاد التداولية في طيات عنوان: "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" للقلقشندي.

2. البعد التداولي للعنوان:

تتضح قيمة الدرس التداولي ضمن تلك الممارسات اللغوية والتي لا تتم إلا عبر منظومات كلامية، يتحقق من خلالها التواصل الذي يؤدي إلى تحقيق الأغراض اليومية، بين طرفي العملية التخاطبية. فأحيانا يجد المتلقي نفسه أمام لبس في ملفوظات المتكلم، التي تكون بقصد أو بغير قصد. وفي هذا الإطار يبرز علماء التداولية قيمة التلفظ، وقيمة المخاطب كونه متلقي للخطاب وساعٍ إلى فهمه، من خلال ما يمتلكه من كفاءات تداولية تساعده في حلحلة شفرات النص وتفكيك عباراته عبر آلية التحليل والتعليل وعبر عملية التأويل أحد أهم دعائم تحليل الخطاب. وكلّ هذا من أجل الوصول إلى فهم مراد المتكلم. وبما أنّ التداولية تتعامل مع النصوص على أنّها خطابات أو ملفوظات لغوية متشابكة ترتبط ملفوظاتها بالوظيفة والسياق والإنجاز، وربطها بالحوارية والمقصدية والتفاعل والإحالة والتخاطب التداولي³، وهذا تجاوز لمستوى الجملة إلى مستوى النص (أو الخطاب).

إنّ أهم الآليات التي يتطلبها تحليل الخطاب تتمثل في عناصر: المرسل، المرسل إليه، الرسالة ومقاصدها التي تفصح عنها اللغة باعتبارها أداة تواصل فاعل ضمن بنية وموقف تواصلية معينين، هدفهما الأساس إيصال مقاصد المتكلم إلى متلقيه، والعمل على التأثير فيه. فاللغة ليست أداة للتواصل فقط، بل أحيانا نجدها تشارك في تغيير العوالم والوقائع

والأحداث، وهذا ما يوحي بأن اللغة تؤدي وظائف مختلفة (توجيهية، وصالية، إعلامية، جمالية، إفصاحية) ترجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة المعنى⁴.

وإذا كان العنوان عبارة عن نص أو خطاب، فإنه هو الآخر يحمل مقاصد قائله باعتباره فعلا تواصليا مضبوطا داخل سياق معين، ولا يمكن فصله بأي حال من الأحوال عن معطياته السياقية والمقامية، حتى وإن تطابق مع سياقات غير سياقاته الأصلية، فهذا التلازم يعد تناقضا مع سياق الإنتاج، إضافة إلى استعماله المجازي الذي قد يُخيم على صياغته⁵. فالعنوان هو بمثابة «علامة وإشارة تواصلية له وجود فيزيقي/ مادي، وهو أول لقاء مادي محسوس يتم بين المرسل والمتلقي»⁶، وهذا نوع من التفاعل الاجتماعي المؤسسي القائم على فعلي القراءة والتأويل، والذي ينتج عنه القصد المتوخى من إلقاء الخطاب.

3. تداولية عنوان "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" للقلقشندي:

يتسم عنوان "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" بالاسمية والإضافة، يحاول من خلاله القلقشندي تقديم الكثير من الإحياءات والرموز ذات مقصدية تداولية، فهذا العنوان هو مما أفرزه القلقشندي نفسه، عبر من خلاله عن صدى عصر بعينه إنه عصر الضعف. أبان القلقشندي من خلال سياقه لهذا العنوان عن مختلف الجوانب والدوافع والأسباب التي كانت وراء تأليفه لكتابه، والتي نذكر منها:

- اعتماد التدوين مادة أساسية لحفظ التراث الثقافي.
 - الحقبة السياسية المتدهورة في زمان الكاتب.
 - تردي الكتابة الديوانية في زمانه ودخول من لا يصلح أن يكون أهلا لها.
 - كثرة الموسوعات وتباينها بين المنجزات البلاغية والفقهية والتاريخية...
- أرجع الكاتب السر في تسميته هذا الكتاب إلى كونه بمثابة ذلك النور الذي يهتدي به الكتّاب إلى معرفة صناعتهم، مقوين به ملكاتهم، موسعين بمحتواه ثقافتهم، صاعدين بسببه مدارج الرقي، خصوصا وأن الثقافة العربية الإسلامية قد تلاشت بعد انهيار الدولة العباسية ببغداد سنة 656هـ على يد هولاكو، فما كانت لتقوم لولا تأسيس دولة المماليك

بمصر والشام، إذ عمل ملوكها على نشر الثقافة الإسلامية والمحافظة عليها، وتشجيع الحركات العلمية، وإكرام الوافدين إليها من كل مكان⁷.

فلفظة "الأعشى" في اللغة العربية تعني ذلك الذي أصيب بمرض في عينيه أفقده الرؤية إذا انعدمت أشعة الشمس، فهو يرى نهارا ولا يبصر ليلا، حتى قال في ذلك الشاعر:

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء الإمامة

لا شك أنّ ما يميّط الظلمة عن عيني الأعشى سوى نور ذلك الصباح المشع بنوره، فهذا الكتاب هو بمثابة الصبح للأعشى، أي أنّ القارئ لن يفلح في مراده إلا إذا تدارس صبح الأعشى، ولن يفلح إلا إذا جعله رائدا ومنارة⁸.

يحتوي العنوان على إيقاع صوتي أجش ممثل في حرف الشين في قوله:

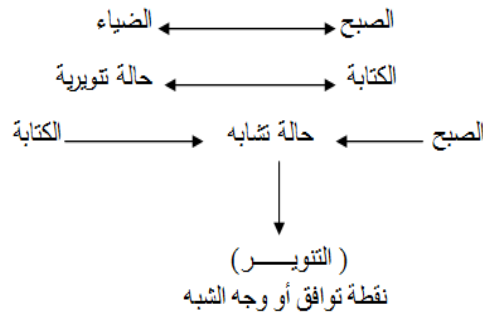
[الأعشى / الإنشاء]

فهذا التناغم الموسيقي لخير دليل على عصر (الضعف) غلبت عليه الصنعة اللفظية والبديعية (سجع، جناس، طباق، مقابلة...). يروم من خلاله القلقشندي إرسال رسالة تتطلب وجود طرفين (كاتب/ قارئ) في عملية التداول الكلامي أو الأداء الإنجازي. فهذا العنوان مستفز لقارئه يتوق من خلاله إلى تصفح متن "صبح الأعشى"، فالتناقض والتنافر والتضاد بين:

[الأعشى - الكتابة - القراءة]

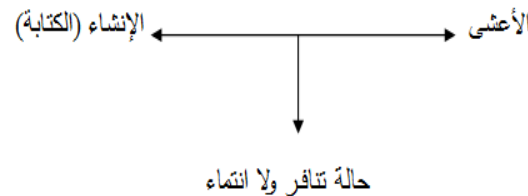
يوجي بالمتعة تارة وبالألم تارة أخرى؛ فكيف يمكن للضير الأعشى أن يجد طريقا للكتابة؟ فهذا ضرب من الخيال، وكيف له أن يُكوّن علاقة حميمية مع الكتابة وهو لا يبصر؟ علما أنّ فاقد البصر لا يجد ضالته في الكتابة التي تعتمد الحروف والحركات وسيلة للتواصل والتفاهم.

في هذا التساؤل الذي أتاحه العنوان يجد المتلقي نفسه أمام تراكم معرفي وثقافي يحمل بين ثناياه سياقاً لغوياً متناقض الأطراف، فالصبح يحيلنا إلى النور، والأعشى في تناقض مع الضياء (عدم الرؤية)، وعليه ينتج لدينا خطاب بدلالات متناقضة:



أما ما يحيل إلى التضاد والتنافر؛ هو حالة الذي لا يكاد يبصر الشيء إلا بعد عناء

ومشقة:



فتأويل العنوان يأخذنا إلى القول بمفهوم المخالفة، فإذا كان الإنسان لا يبصر فمن غير المعقول أن يكون قارئاً، إلا إذا كان تتبع بغير جارحة (العين) على شيء مكتوب كالكتاب أو اللوح، أي أن كل قارئ لا بد أن يكون مبصراً، لأن العين هي آلة القراءة. ومن هنا فالكتابة تستلزم حتماً أن يكون هناك قارئاً مجيداً للقراءة لا ناطقاً يجيد الكلام، فالناطق قد يكون أعمى وليس مجيداً للقراءة ولكنّه يجيد ترديد الأصوات⁹.

اختزل القلقشندي موسوعته التي ربت عن أربعة عشر مجلداً في عنوان: "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء". وهذا العنوان هو من افرازات القلقشندي نفسه. يقول في المجلد الأول: «وسميته (صبح الأعشى في كتابة الإنشاء)»¹⁰، فهذا القول يتكون من:

أ- تركيب إضافي (صبح الأعشى).

ب- شبه جملة تتكون من:

ب-1- حرف جر: في.

ب-2- اسم مجرور وإضافة (كتابة الإنشاء).

إنَّ أول ما يلاحظ على هذا التركيب هو الاسمية، والاسمية في عرف النحوي تدل على الثبات والاستقرار. وهذه الجملة عبارة عن إخبار أو ما يسميها أوستين بالفعل التقريري (Acte constatif). وإذا أردنا أن نلج إلى عوالم القلقشندي النفسية في اختياره لهذه التسمية (العنونة)؛ وبحثنا في دوافع اختياره لهذا العنوان، وعن مقاصده التي يرمي إليها من خلاله فإننا نسلم بما يلي¹¹:

- العنوان سليم في بنيته الصرفية والإيقاعية، وهو وليد عصر الضعف الذي عاصره القلقشندي.
- يعكس العنوان هوية القلقشندي الزمانية والمكانية والاجتماعية والثقافية.
- يعد العنوان من المتعاليات النصية التي يواجهها المتلقي، وهي بمثابة فاتحة مخيلة المتلقي إلى عوالم ضمنية وتخيلية تحمل القارئ على أفق توقع مستفز، يجعله يتوق لمعرفة ما يحمله النص من كوامن موظفا في ذلك خبراته وكفاءته في عمليتي التفسير والتأويل.
- "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" عبارة نص موازٍ (Para texte).
- في عبارة (صبح الأعشى في كتابة الإنشاء) طاقة إيجابية، فالصبح يحيل للنور، والأعشى للذي يبحث عن الضياء والنور، ونوره في الكتابة، وهنا يمكننا ملاحظة ذلك التقابل والتوازي الذي أحدث وظيفة انفعالية لدى المتلقي.
- في عبارة "العنونة" أثر عرفي يتمثل في "الكتابة" التي هي نقيض الأمية، وهذه طاقة إيجابية ثانية وإنجاز عملي يعضد نظرية أفعال الكلام التي جاء بها أوستين وسيرل.
- الكتابة أداء فعلي يأتي بعد القول ويتحقق ويتجسد في الواقع ويترك أثرا طيبا وثمرة نامية وكثيرا ما تكون الكتابة بعد الإملاء لتحقق للملفوظات وجودها الحقيقي والفعلي.
- يجد الأعشى دليله في الكتابة التي هي صبحه ونوره الذي يضيء ويجلي عن بصره غشاوة الظلمة والجهل.

- "صبح الأعشى" عبارة عن تقريرية صريحة معلنة تلعب دورها في توجيه صاحب الحاجة إلى حاجته رغم العوائق المتمثلة في عدم الرؤية مثلاً (حال الأعشى)، وتكمن القوة الغرضية لهذا الفعل الإنجازي في التحدي الذي يُحدثه الصبح فسماه "صبحاً" ولم يذكر النور لأن ذكره من قبيل تحصيل حاصل.

إنّ العنوان الذي اختاره القلقشندي لموسوعته يحمل بين ثناياه قضية واضحة ومحددة تمثلت في ذلك الواقع المرير الذي عايشه، فجاء سقوط الممالك العربية وفساد أنظمتها الحاكمة، وكثرة الانتحال وفشو اللحن بسبب طغيان الامتزاج الثقافي وتواطؤ الحكام العرب بتوسيد مناصب عليّة لمن هم ليسوا بأهلها...، فمن أجل هذا نظم القلقشندي موسوعته ليعبر من خلالها عن مواقفه وأفكاره تجاه مجتمعه، لذا كان عنوانه واضح الرؤية مقصود المعالم، يحمل مضمرات نفسه الحاقدة على ما آل إليه حال العرب من مصر إلى الشام، مستعملاً في ذلك مختلف الاستراتيجيات الخطابية والإقناعية من أجل تحقيق أهدافه النفعية بالرغم من تفاوتها تبعاً لمجريات الخطاب وتعدد مجالاته أو حقوله¹². والعمل على الدفع بالمتلقي والتأثير فيه، بمختلف الاستعمالات اللغوية صريحة كانت أم ضمنية كالصور البيانية التي عادة ما يلجأ إليها المؤلف كونها تحمل طاقة حجاجية تجعل المتلقي يقع في فخ التأويل، وما يتوصل إليه المتلقي بنفسه يكون صعباً تغييره، لأنّه وصل بذلك إلى حد الاقتناع، ففي قول القلقشندي "صبح الأعشى" كناية عن التمكن من الشيء، أو كناية عن التدرج في الاهتداء لطلب العلم، وتكمن قيمتها التداولية في جعل القلقشندي منها مشيراً إلى المعنى المراد، فالكناية عادة ما يقدم صاحبها الحقيقة مصحوبةً بدليلها، فالمتلقي من خلال الصورة البيانية يعمل عقله ويتأمل في اللفظ وينتقل من المعنى اللازم إلى المعنى الملزوم.

إنّ الهدف الأسمى الذي يتوخاه القلقشندي من خلال عنوان كتابه الذي جعله على رأس موسوعته؛ هو رغبته في تغيير وضع مجتمع قائم على التسلط والقهر وسوء التسيير، فالأديب بعّده فرداً من المجتمع فهو واع بروح المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه وطنه مصر

خصوصا وشعوب العرب عموما، فكانت هذه الصورة البيانية أحد الحجج التي لجأ إليها القلقشندي لإقناع متلقيه عن طريق ذلك النص المصغر- العنوان- الذي «يضيء الطريق الذي ستسلكه القراءة، ويرتبط عفويا بوحدة كبرى يختزل معناها، ولا يختلف معها بل يعكسها بأمانة ودقة لأنه الظاهر الذي يدلُّ على باطن النص ومحتواه»¹³.

4. خاتمة:

مما سبق يمكننا القول: بأنَّ القلقشندي من خلال العنوان الذي ساقه على رأس موسوعته قد تخيَّر ألفاظه تخيِّرا لما سيتركه من أثر على المتلقين، وإيماننا منه بأنَّ الكلمة لها دورها الفاعل في التعبير والتغيير، فما وصل إليه الناس في زمانه من جهل للكتابة الديوانية، ومما أصاب الناس من وباء التنميق اللفظي، وغياب النظرة التنظيمية العامة للحكم، فما كان من القلقشندي إلا أن يجد لهم مخرجا لما يتخبطون فيه، فيكون كتابه بمثابة النور الذي ينير الدرب أمام كل حائر.

استعمال القلقشندي للفظ "الأعشى" يعكس واقعا مريرا تعيشه، وتحقيرا منه للثقافة الأدبية في ذلك العصر، فما كان عليه سوى أن يقابل لفظ "الأعشى" بلفظ "صبح" لعله يعيد ذلك التائه ليجد ضالته، فكان هذا "الصبح" المشع بنوره بمثابة الطارد لظلام الجهل والأمية.

مراجع البحث وإحالاته:

¹- مهدي مشته ، قراءة تداولية في عنوان ديوان "الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق" لنزار قباني، مجلة لغة كلام، مج: 07، ع: 02، جامعة غليزان، الجزائر، 2021، ص476.

²- Voir: Gérard Genette, Seuil, édition seuil- France, 1987, p07.

³- ينظر: جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، شبكة الألوكة، المغرب، ط2015، ص9-10.

⁴- ينظر: تمام حسان، الأصول: دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو- فقه اللغة- البلاغة)، عالم الكتب، القاهرة، دط، 2000، ص347.

⁵- ينظر: مهدي مشته ، قراءة تداولية في عنوان ديوان "الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق" لنزار قباني، مرجع سابق، ص477.

⁶ - بهاد الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية، من أفعال الكلام على بلاغة الخطاب السياسي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص18.

⁷ - ينظر: محمد بن عبد العزيز الدباغ، " نظرات حول كتاب: صبح الأعشى للقلقشندي"، مجلة دعوة الحق، الرباط، المغرب، ع:05، 1963، ص46.

⁸ - نفسه.

⁹ - ينظر: موسى طهراوي، الأبعاد التداولية في صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة، الجزائر، 2024، ص54.

¹⁰ - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج1، دط، 1922، ص10.

¹¹ - ينظر: موسى طهراوي، الأبعاد التداولية في صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي، السابق، 93-94.

¹² - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط2004، ص445.

¹³ - مهدي مشته، قراءة تداولية في عنوان ديوان "الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق" لئزار قباني، مرجع سابق، ص481.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- الكتب:

- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج1، دط، 1922.
- بهاد الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية، من أفعال الكلام على بلاغة الخطاب السياسي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010.
- تمام حسان، الأصول: دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو- فقه اللغة- البلاغة)، عالم الكتب، القاهرة، دط، 2000.
- جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، شبكة الألوكة، المغرب، ط1، 2015.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
- Gérard Genette, Seuil, édition seuil- France, 1987.

- المقالات:

- محمد بن عبد العزيز الدباغ، " نظرات حول كتاب: صبح الأعشى للقلقشندي"، مجلة دعوة الحق، الرباط، المغرب، ع:05، 1963.
- مهدي مشته، قراءة تداولية في عنوان ديوان "الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق" لئزار قباني، مجلة لغة كلام، جامعة غليزان، الجزائر، مج:07، ع:02، 2021.

- الأطروحات:

- موسى طهراوى، الأبعاد التداولية في صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة، الجزائر، 2024.